حـــدا مقـــص

من الأدب الإسباني

أميليا باردو بازان

قال الأب بالتار وهو يلج بحثا دنيويا بأسلوب لا تكلف فيه:

"ان إلفين متزوجين يشبهان حدّي مقص."

وهتف أحد الحاضرين بلهجة تشوبها الدهشة:

"حدي مقص!.. هل تعلم يا أبت أن تشبيهك مبتدع؟

وأجاب القس موضحا وقد رفض بايماءة كأس نبيذ الريجا الثاني الذي قدّم اليه:

"انه أكثر من مبتدع، انه حقيقة.. فالمقص كما تعلمون آلـة مؤلفـة مـن ضلعين متماثلين أو متشابهين أعظم الشبه، متحدين بمحور ومثبتين معـا بمـسكة ضئيلة من المعدن نفسه. ومع أن كل حدّ من المقص يمكنه أن يكون صالحا قاطعا الاّ أن المقص نفسه لن يعمل بغير محوره. فباتحادهما معا ينجـز ان عمـلا مـن الدرجة الأولى ويشكلان نسيج الحياة على أكمل وجه.

فقال مستمع آخر كان يصغي للقس، وهو رجل عرك الحياة وخبر الطبيعة الإنسانية فاستراب بما يكمن فيها من خير: "انني أوافقك على هذا، ولكن أخبرنـا، من فضلك، فيما اذا كنت تعتقد بوجود كثير من مثل هذه المقصات الفاخرة؟"

وأجاب الرجل الذي كان يتمتع بثقافة طيبة الى جانب كونه قسّا بابتـسامة قائلا: "ان ما هو فاخر حقيقة نادر جدا في كل مكان، أو على الأقل يبدو نادرا لنـا لأننا متهيئون لعدم الرضى عن كل شيء. نعم.. ومع أن مفتاح الزواج يكمن فـي المحور الا أن لصلاحية الشفرتين اهمية عظمى. ليذهب أي منكم الـى حـانوت ويطلب مقصا فتعرض عليه عشرات من المقصات كلها تبدو متماثلة شكلا وثمنا. ولن تستطيع، إلاّ بحمل دستة منها الى المنزل وتجربتها، أن تعرف مزيّة كل منها. ولهذا نرى الخائطين حين يقعون على واحد يلائمهم لايفرطون به مهمـا كانـت الظروف..

عرفت مقصا من ذهب خالص، فأية مزية كان يتحلّى بها؟ إنهـا عاطفـة طبيعية هذبتها إرادة الهية. وساطلعكم على الحالة التي خبرتها وهزتني رغم أنهـا لم تكن إلا حكاية عادية وممثلوها سذج من عامة الناس.

كنت في الدير أستشفي من حمّى ألمّت بي حين تم تعـارفي، مـن بـين عائلات عديدة، على زوجين يديران متجر أجواخ تحت أساطين الـساحة القديمـة غير بعيد عن الكاتدرائية. وبالرغم أنهما لم يكونا يعترفان الي بل لقس الأبرشـية، الاّ أنهما كانا يحبان أن يستشيراني في شؤونهما بأسلوب ودّي.

كانت دونا كونسويلو وزوجها دون أندرز على وفاق تام معا، سعيدين لولا ابن لهما عاقّ كان يزوّدهما بزعج جديد كل صباح وبما يحمرّان له خجـلا كـل مساء. كان مشاكسا، فاسد الأخلاق مبذرا. فلا دموع والدته ولا لـوم والـده ولا النصح الذي محّضته اياه من حين لآخر بناء على طلبهما نجحت في إغرائه بهجر عادة سيئة من عاداته. فأشرت عليهما ، حين بدا لـي أن الـشاب عـصيّ علـى الإصلاح، أن يرسلاه الى قطر آخر حيث ترغمه الحاجة ونقـص المـوارد الـى الإعتماد على نفسه في معاشه.

ووافق الأب على الفكرة ورضخت لها الأم حين وجدتها الطريقة الوحيـدة التي يمكن اتباعها. ولما فصّل الطريد منيلاّ مكانا لمنفاه أرسل اليها مزودا بكثيـر من التوصيات الضرورية الى راعي الدير التابع لنا هناك.

وفي نحو ستة أشهر بدات استلم تقارير مرضية عن سلوك الشاب مثنيـة على مهارته وجده! وعندما سمع الوالدان أن سلوكه في تحسن مستمر كادا يطيران فرحا. كان الراعي نفسه من بعث الي بهذه الأخبار السارة إذ لم يكن الشاب ممـن يحبون المراسلة.

ومرت فترة من الزمن على هذا المنوال حتى فوجئت يوما بنبأ مريع وأنا أقرا رسالة وصلتني من الراعي، إذ طعن ابن دون أندرز وقتل في مشاجرة وهو خارج من منزل سيئ السمعة. وطلب اليّ أن ابلغ الوالدين النبأ الفاجع.

كانت مهمة محزنة - ولكننا نحن رجال الدين محاطون دائما بـالأحزان. فأرسلت في طلب دون أندرز إذ خطر ببالي لأول وهلة أن الوالد أقوى احتمالا من

الأم، فجاء الى صومعتي وتدرجت بإعلان الخبر اليه بكل ما أوتيـت مـن رقـة ولباقة، وسردت عليه ما مرّ بي من مآس فلم يتردد في أن يفهمني. وكان يبدو أنه خمّن ما سيأتي، فحين ذكرت الجراح التي اصابت ابنه أدرك أنها تعني الموت فلم يبك، ولكن ما ارتسم على وجهه من تعابير كان شبيها بما يبدو على وجـه مـتهم أفرج من باب سجنه ليجد نفسه على عتبة المقصلة. واني أستعمل هـذا التـشبيه بحرص لأنني شاهدت بعض البائسين التعساء في مثل هذه المحنة المريرة.

وحين استطاع دون أندرز أن يستعيد انفاسه عقد ذراعيه قائلا: "سأسألك معروفا ياأبت فلا تضن به علي. لندبر الأمر فيما بيننا بحيث لاتعلم كونسويلو بما حدث. فمنذ سنوات قلائل كانت زوجتي ممتلئة الجسم قوية البنية، ولكن سوء سلوك ابننا دمّر عافيتها، والى هذا، فانها تقارب الستين من عمرها وتشكو مرضا داخليا عضالا-هو نوع من التدرّن الرئوي، فان بلغتها المصيبة لعجّلت في نهايتها. ولو أمكننا أن نخفي عنها ما حدث لطفلنا" -ودعاه بالطفل بالرغم أنه كان يبلغ السابعة والعشرين من عمره- "فربما طالت بها الحياة فترة ما. سأتكفّل بجميع النفقات المحتمل أن أواجهها هناك، حفلة الدفن والمحاكمة ، بل وأصفح مختارا عن قاتل ولدي حتى لاتعلم كونسويلو بشيء.

هل أصبت أو أخطأت في موافقتي؟ لست أدري، ولكن قلبي كان يدمي للرجل التعس فكنت أذهب كل أسبوعين أو ثلاثة الى المتجر أحمل رسائل صورية كان المفروض أنني استلمتها من مانيلاّ، فأتحدث عن الشاب الغائب كما لو كان حيا، وأثني على نجاحه في عمله وثقافته وسلوكه الحسن.

وأما دونا كونسويلو التي كانت صحتها تهن يوما بعد يوم وقد تأاب عليها سعال متواصل وهزال قاس، فكانت تنهض نفسها دائما حين أقرأ عليها الرسائل وتصغي بفرح صبياني وتنادي دون أندرز ليشاركها سرورها وتهتف وعيناها تلتمعان بدموع الغبطة: "آه يالعناية السماء بنا! استقام الصبي وغدا سلوكه معتبرا وسيكون قادرا بعد زمن قصير على أن يمسك زمام أعمالنا. وسأعطيك أيها الأب بالتار بعض المال لترسله اليه عن طريق أصدقائك هناك. فأنت تعلم حاجة الشباب الى مال وأنا لاأحب أن يحرم ابني من شيء.

فيقول زوجها وهو يكبت حزنه ويخنق زحيره:

"حسنا ياعزيزتي، أعطي الأب بالتار هذه الثلاثين ريالا، ولكن لاتهيجي نفسك، كوني امرأة عاقلة".

وكان مما يثير الشجن، أن يرجوني الوالد سرا حين تعطيني الأم مبلغا من المال هدية لابنها، أن أنفقه في القداس على روح الصبي المسكين لتطمئن في العالم الآخر.

ورحت ألعب دوري بضمير حي وأنا أرى صحة دونا كونسويلو تسوء، ومفاجأتها بالنبأ يغدو أشد خطرا يوما بعد يوم. ولم يكن دون أندرز يتغيب عن المنزل حين حضوري للزيارة إما لأنه كان يخشى السهو من جانبي أو لأنه ما كان يرغب في ترك المريضة، فيجلسان معا وكأنهما زوجين من الطير جاثمين جنبا الى جنب فوق غصن متعانقين حذر البرد. هي تسعل وتقول أن مرضها ليس الاّ عارضا وهو أدكن الوجه مختنق الأنفاس يغالب ما بنفسه بالمزاح مع زوجته، بل وبإغداق المديح عليها، الأمر الذي كان من شأنه أن يطربني في أحوال أخرى، ولكنه والحال كما عهدناه كان يبعث في نفسي أعمق الأسف.

وما زالت مهزلة الرسائل تترى محدثة أبلغ الأثر في نفس الأم المسكينة حتى كان يخيل الي بأنني أراها في غفلة من زوجها تومئ الي بإشارات الإستحسان والرجاء وعرفان الجميل وكأنها تعني "استمرّ في إخبار أندرز أن الصبي يتصرف كملاك حتى لو لم يكن دائما يحسن سلوكه."

لم يكن هذا الاّ من قبيل الإفتراض إذ لم يتح لي كما قلت قبلا، أن أخلو بدونا كونسويلو لحظة واحدة. وفي إحدى الأمسيات دعيت الى منزلهما في وقت متأخر حين أخبرني دون أندرز أن زوجته تموت أو هي مشرفة، وأنها تميل أن تعترف الي. فأصبح اختلاق رسالة تحمل أخبار قرب عودة الإبن الى المنزل ضرورة لامناص منها.

وقال دون أندرز وهو يرتجف باهتياج جعلني لاأقوى على رفـض ذلـك المعروف الأخير: "لنحاول أن نطيل حياتها بضعة أيام بجعلنا إياها تعتقد ذلك."

وحين دخلت غرفة دونا كونسويلو، نظرت الى زوجها فانسحب خفية وهو يشير الي بايماءة معبرة فيها تحذير وفيها رجاء.

تقدمت من فراش العليلة الدانية الأجل فوجدتها تحرك شفتيها بسرعة كأنها تصلي. وجلست عند رأس السرير أخاطبها بكلمات تبعث في نفسها الأمل والعزاء، فكانت تلك الكلمات التي اعتدنا نحن رجال الدين أن نمهد بها الطريق الـى القبـر كقطرات البلسم لروح عطشى. وأدارت وجهها نحوي وقد كساه تعبير شكر عميق، وقالت وهي تأخذ يدي لتقبلها: "ليجزيك الله خيرا أيها الأب بالتار عن كـل ذلـك الأمد الطويل الذي كنت تخدع فيه زوجي.. عدني أن لاتظهره على الحقيقة بعـد موتي.

وسألتها وأنا أظنها ارتدّت الى الهذيان في ضعفها وحمّاها:

"ماذا تعنين؟ أنا أخدعه؟"

فاسترسلت بدون أن تصغي الي:

"لولاك لكان حزن أندرز بالغا، لاتدعه يدري بنبأ الطفـل! وهتفـت وقـد تذكرت وعدي لدون أندرز: "الصبي، ان الصبي بخير وسيعود، وقريبا سيكون هنا ليعانقك!"

"نعم، حقا، أنا التي سأعانقه في العالم الآخر.. لايزعجك أمـري ، فـانني أعرف النبأ منذ زمن بعيد، حتى قلبي حدّثني به. فهل تظن بأنني لاأجد هناك مـن أسأله فينبئني بأخبار ولدي؟ كانت الرسائل تردني باسم صديقة لي، حتى اذا كـان فيها ما يزعج لم أسمح لأندرز أن يعلم به، انني رجوت الأب الراعي أن لايبعـث اليك الاّ بأنباء سارة لتطلع عليها زوجي .فحين كنت تأتي بالرسـائل المـصطنعة قائلا بأن الطفل حي وأنه ناجح في عمله، كنت أسـاعدك علـى خـداع أنـدرز المسكين، ان صحته ليست على ما يرام وأية أنباء سيئة تشكل خطرا عليه فيما لو بلغته الآن. انني بذلت جهدا عنيفا يا أبت لئلاّ ينكشف تظاهري ، فما كنت لأخفـي سرا طوال الأعوام التي كنا فيها زوجين...

وهنا توقف القس في سرد حادثته، وأجال ناظريه في الحاضـرين فـرأى الوجوه وقد أهاجها أبلغ تعابير التأثر والعطف..

وهتف الرجل الذي تكلم أولا: "وهكذا عرف كل منهما الخبر وأخفاه عـن الآخر.. أية تمثيلية رائعة المشاعر هي!

وأردف المتهكم المستريب: "يمكنك أيها الأب أن تعلن بغير حرج أن ذلك المقص كان من ذهب خالص مرصع بأندر الأحجار الكريمة..

وأجاب القس بلهجة عميقة المعنى: "وبوسعي أن أقول أيضا بأنني رأيتهما يمتدّان ويعانقان الشمس!"

* * *